دعاء السيدة فاطمة الزهراء (ع): قلبٌ راضٍ وحياةٌ ذات غاية

يجمع هذا الدعاء المنسوب إلى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بين مطالب تبدو، للوهلة الأولى، متفرقة: الرزق، والستر، والعافية، والمغفرة، والوالدان، وتهذيب النفس. لكن التأمل فيه يكشف عن خيط يجمعها جميعًا؛ فهو يرسم للإنسان علاقته با، ويعلّمه كيف ينظر إلى دنياه، وكيف يؤدي حق من أحسن إليه، وكيف يحفظ قلبه من الانشغال عمّا خُلق له.

"اللّهُمّ قَنّعني بِما رَزَقتَني ، وَاستُرني وعافِني أبَداً ما أبقَيتَني ، وَاغفِر لي وَارحَمني إذا تَوَفّيتَني . اللّهُمّ لا تُعيِني في طَلَبِ ما لَم تُقَدّر لي ، وما قَدّرتَهُ عَلَيّ فَاجعَلهُ مُيَسّراً سَهلا . اللّهُمّ كافِ عَنّي والِدَيّ وكُلّ مَن لَهُ نِعمَةٌ عَلَيّ خَيرَ مُكافاةٍ . اللّهُمّ فَرّغني لِما خَلَقتَني لَهُ ولا تَشغَلني بِما تَكَفّلتَ لي بِهِ ، ولا تُعَذّبني وأَنَا أستَغفِرُكَ ، ولا تَحرِمني وأَنَا أسأَلُكَ . اللّهُمّ ذَلّل نَفسي في نَفسي ، وعَظّم شَأنَكَ في نَفسي ، وأَلهِمني طاعَتَكَ وَالعَمَلَ بِما يُرضيكَ ، وَالتّجَنّبَ لِما يُسخِطُكَ ، يا أرحَمَ الرّاحِمينَ ." [١]

القناعة: غنى القلب وسط متطلبات الحياة

يفتتح الدعاء بقوله: «اللهم قنّعني بما رزقتني». والقناعة هنا ليست دعوة إلى الكسل أو ترك طلب الرزق، بل هي طلبٌ لسلامة القلب وهو يسعى. فقد يعمل الإنسان بجد، ويخطط لتحسين معيشته، لكنه يظل ساخطًا لأن عينه معلّقة بما عند غيره. وكلما نال شيئًا انتقل تفكيره إلى ما ينقصه، فلا يجد وقتًا ليفرح بما أُعطي.

لذلك يبدأ الدعاء من الداخل: من نظرة الإنسان إلى رزقه. فقد يكون الرزق ماًلا، وقد يكون صحةً، أو أهًلا محبين، أو فرصةً نافعة، أو قلبًا قادرًا على تجاوز المحن. والقناعة تجعل الإنسان يرى هذه النعم ويشكرها، من غير أن يتوقف عن العمل والطموح. إنها تحرره من المقارنة الدائمة، وتمنحه قدرةً على العيش بطمأنينة في حدود ما يملك اليوم، وهو يسعى لما يرجوه غدًا.

الستر والعافية: نِعم لا يُقاس قدرها بالمظاهر

ثم تقول كلمات الدعاء: «واسترني وعافني أبدًا ما أبقيتني». يجمع هذا الطلب بين الستر والعافية؛ فالإنسان يحتاج إلى ما يحفظ جسده، وما يحفظ كرامته وسكينته كذلك.

قد يعتاد المرء عافيته حتى يظنها أمرًا مضمونًا، ثم يدرك عند المرض أن القدرة على الحركة والنوم والعمل والجلوس مع الأحبة نِعم عظيمة. وكذلك الستر؛ فهو رحمة يحتاج إليها كل إنسان، لأن أحدًا لا يخلو من ضعف أو تقصير. ومن يستشعر حاجته إلى ستر الله يكون أقرب إلى ستر عيوب الناس، وأبعد عن التسرع في فضحهم أو الحكم عليهم.

وفي عبارة «ما أبقيتني» استحضارٌ للعمر كله؛ فكأن الداعي لا يسأل عافية يومٍ واحد، بل يسأل الله أن يصحبه بلطفه في كل ما بقي من حياته.

المغفرة والرحمة: النظر إلى ما بعد الحياة

ويتابع الدعاء: «واغفر لي وارحمني إذا توفّيتني». بعد طلب الرزق والعافية في الدنيا، ينتقل القلب إلى لحظة الرحيل. وهذا الانتقال يضع هموم الحياة في موضعها الصحيح: فهي مهمة، لكنها ليست كل شيء.

يسأل الإنسان المغفرة لأنه يعرف تقصيره، ويسأل الرحمة لأنه يعرف أن عمله، مهما بلغ، لا يغنيه عن فضل الله. وتذكّر الموت في هذا السياق لا يدعو إلى الحزن أو الانصراف عن الحياة؛ بل يدعو إلى أن يعيش المرء حياةً أصدق: يبادر إلى الإصلاح، ويردّ الحقوق، ولا يؤجل الاعتذار والتوبة والعمل الصالح إلى وقت يظن أنه سيأتي حتمًا.

بين بذل الجهد والرضا بما يُكتب

من أعمق مقاطع الدعاء قوله: «اللهم لا تُعنِّي في طلب ما لم تقدّر لي، وما قدّرته عليّ فاجعله ميسّرًا سهلًا». ففيه حديث عن تعبٍ يعرفه كثير من الناس: أن يبذل الإنسان جهده، ثم يظل أسير أمر لا يتحقق، حتى يفقد راحته وقدرته على الالتفات إلى سائر جوانب حياته.

لا يعني هذا أن يتخلى المرء عن أهدافه عند أول صعوبة. بل يعني أن يسعى بوعي، ويعيد النظر في

الطريق حين تستنفد المحاولة طاقته دون جدوى، وألّا يجعل أمرًا واحدًا يحكم قيمته أو مصيره. فهو يسأل الله ألّا يستغرقه طلب ما ليس له، وأن ييسّر عليه ما يمرّ به مما كُتب عليه.

وفي الشطر الثاني من العبارة معنى مواساة أيضًا. فليس كل ما يقع للإنسان مما يختاره أو يتمناه؛ قد يواجه مرضًا، أو فقدًا، أو مسؤوليةً ثقيلة. وحين يقول: «فاجعله ميسّرًا سهلًا»، فإنه يسأل الله العون على مواجهة الواقع، والقوةَ التي تخفف وطأته وتفتح له أبواب الصبر والعمل.

الوفاء لمن صنعوا خيرًا في حياتنا:

ويقول الدعاء: «اللهم كافِ عنّي والديّ وكلّ من له نعمة عليّ خير مكافأة». هنا ينتقل من علاقة الإنسان بنفسه إلى علاقته بالآخرين. إنه لا ينظر إلى ما وصله من خير وكأنه حدث وحده؛ بل يتذكر من رعاه، وعلّمه، وسانده، وفتح له بابًا، أو خفف عنه مشقةً في وقت الحاجة.

يأتي الوالدان أولًا لما لهما من حق عظيم، ثم تتسع دائرة الدعاء لتشمل «كلّ من له نعمة عليّ». وقد يكون في هذه الدائرة معلمٌ غرس فكرة، أو صديقٌ ثبت في محنة، أو إنسانٌ أحسن إلينا ثم مضى من غير أن ينتظر جزاء.

وربما لا يستطيع الإنسان أن يردّ كل جميل بمثله؛ لذلك يدعو الله أن يجزي المحسنين خير الجزاء. غير أن الدعاء لهم لا يُلغي الشكر المباشر والإحسان إليهم حين يكون ذلك ممكنًا. إنه يُبقي فضلهم حيًّا في القلب، ويمنع النسيان الذي قد تصنعه مشاغل الأيام.

أن يبقى للإنسان وقتٌ للغاية التي خُلق لها:

ثم يبلغ الدعاء موضعًا يستحق وقفة طويلة: «اللهم فرّغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفّلت لي به». كم من إنسان يمضي يومه بين عملٍ والتزاماتٍ ومواعيد، ثم يشعر عند نهاية اليوم أنه أنجز أشياء كثيرة، لكنه ابتعد عما يمنح حياته معناها؟

لا يدعو هذا المقطع إلى ترك شؤون المعيشة؛ فالعمل، ورعاية الأسرة، والقيام بالواجبات، قد تكون كلها من أبواب الطاعة إذا صلحت النية وأُديت الحقوق. لكنه يدعو إلى ألّا تستولي المخاوف المتعلقة بالرزق والمستقبل على القلب حتى تُنسيه عبادته، وخلقه، ومسؤوليته تجاه أهله ومجتمعه.

ولعل السؤال الذي يوقظه هذا الدعاء في النفس هو: هل تخدم مشاغلي غاية حياتي، أم أصبحت الغاية مؤجلةً بسببها؟ قد لا يحتاج الإنسان دائمًا إلى تغيير عمله أو ظروفه، لكنه يحتاج أحيانًا إلى إعادة ترتيب أولوياته؛ فيمنح وقتًا للصلاة والتأمل، ولصلة رحمه، ولتربية أبنائه، ولعمل نافع يتجاوز مصلحته الخاصة.

الرجاء الذي يفتح باب العودة:

وفي قوله: «ولا تعذّبني وأنا أستغفرك، ولا تحرمني وأنا أسألك» يظهر قلبٌ يعرف باب الرجاء. فالاستغفار اعتراف بالخطأ ورغبة في تصحيحه، والسؤال إقرار بالحاجة إلى الله.

هذه الكلمات تعلّم الإنسان ألّا يجعل تقصيره سببًا لليأس. فمَن أخطأ يستطيع أن يعود، ومَن أثقلته حاجته يستطيع أن يدعو. غير أن الرجاء الصادق يترك أثرًا في السلوك: استغفار يتبعه جهد في إصلاح ما فسد، ودعاء تصحبه الأسباب الممكنة. وهكذا يصبح التوجه إلى الله مصدر قوةٍ تدفع إلى التغيير، لا مجرد كلمات تُقال ثم تُنسى.

تهذيب النفس وتعظيم شأن الله في القلب:

يقترب الدعاء في ختامه من أصلٍ دقيق في تربية الإنسان: «اللهم ذلّل نفسي في نفسي، وعظّم شأنك في نفسي». فالنفس قد تُعجب برأيها، وتستثقل الاعتراف بخطئها، وتحب أن تُقدَّم على غيرها. وحين يطلب الإنسان أن تذلّ نفسه في نفسه، فهو يسأل التحرر من الكِبر والغرور، وأن يرى نفسه بحجمها الحقيقي: لها قدرها وكرامتها، لكنها تحتاج إلى التعلم والمراجعة والمغفرة.

وفي المقابل، إذا عظم شأن الله في القلب، لم تعد الطاعة عادةً خالية من المعنى، ولم يصبح اجتناب الخطأ مجرد خوف من نظرة الناس. يصير رضا الله حاضرًا في القرار، وفي الكلمة، وفي طريقة معاملة الآخرين، حتى في الأمور التي لا يطلع عليها أحد.

ولهذا يتبع الدعاءُ ذلك بقوله: «وألهمني طاعتك والعمل بما يرضيك والتجنّب لما يسخطك». فهو لا يكتفي بطلب الشعور الروحي، بل يسأل أن يتحول ما في القلب إلى عمل: خيرٍ يُفعل، وحقٍّ يُؤدّى، وأذىً يُترك.

دعاء يمكن أن نعيش معانيه كل يوم:

تتسع معاني هذا الدعاء لحياة الإنسان كلها. ففي الرزق يعلّمه القناعة، وفي الشدة يعلّمه طلب التيسير، وفي علاقاته يذكّره بالوفاء، وفي انشغاله يردّه إلى غايته، وفي تقصيره يفتح له باب الاستغفار، وفي نجاحه يحميه من غرور النفس.

وقد يكون أجمل ما فيه أنه لا يفصل بين الروح والحياة اليومية. فالإنسان الذي يدعو بالقناعة مدعوّ إلى ممارسة الشكر؛ والذي يدعو لوالديه ومحسنيه مدعوّ إلى برّهم؛ والذي يسأل أن يتفرغ لما خُلق له مدعوّ إلى مراجعة ما يستهلك وقته وعمره.

هكذا تصبح كلمات الدعاء أكثر من نص يُتلى؛ تصبح ميزانًا يعود إليه المرء كلما ازدحمت عليه المطالب: أن يسعى دون أن يفقد رضاه، وأن يشكر دون أن ينسى فضل الناس، وأن يعيش دنياه بقلبٍ متجهٍ إلى ا.